مهمّاتٌ تربويّة

تقديم

أنا هيّ بنت عيد السمري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الخامس عشر
سورة الإسراء 18-39

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا، وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

لا زلنا نذكر أنفسنا بهذا الحديث العظيم الذي وصف فيه رسولنا الكريم علاقة المؤمنين الصادقين برب العالمين، فقال: -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «إن للهِ أَهلِين من الناسِ قالوا: من هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: أهلُ القرآنِ هم أهلُ اللهِ وخاصتُه.»[1] هؤلاء أقبلوا على القرآن وعرفوا أنه يدلّهم على الصراط المستقيم، وعرفوا أن فيه خبرًا أن الله أنعم عليهم فاهتدوا إلى الصراط المستقيم، وفي القرآن خبر عن المغضوب عليهم وعن الضالين عن الصراط المستقيم. فأقبلوا على القرآن يريدون أن يعرفوا منه خبر أولئك القوم الذين ساروا على الصراط المستقيم، ما أحوال هذا الفريق الناجي، الذي سار على الصراط المستقيم، وما أحوال الهالكين من المغضوب عليهم ومن الضالين، فكان هذا

---

[1] () أخرجه ابن ماجة (215)، وأحمد (12292).

الإقبال في مكانه، وكانوا بذلك أهل القرآن، أهل الله وخاصته. ومن ذلك ما ورد في سورة الإسراء، وهي سورة عظيمة تخبر عن عظيم هدي القرآن، كيف أن القرآن منّة الله على هذه البشرية، وأن في القرآن هداية، وفيه الصلاح والرشاد بما وصفنا من كون أن الإنسان يقبل عليه، فيجد وصف الطريق المستقيم ووصف السالكين في هذا الطريق المستقيم (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا). من ضمن ما تضمنته هذه السورة أخبار عظيمة عن هؤلاء المهتدين وعن خلافهم، لذلك قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا). فهناك وصف للذين آمنوا وبشّرهم القرآن ووُصِف للذين لا يؤمنون بالآخرة ويخبر القرآن عما أعدّه الله لهم. سنقرأ ما يتيسر لنا من هذه الأخبار عن وصف هذا الفريق وهذا الفريق، وعن صفات الناجين على ما ييسر لنا رب العالمين، نسأل الله أن ينفعنا وأن يكون خالصًا لوجهه:

عندما ننظر من الآية: (18) إلى الآية: (21) سنجد أن هذه الآيات تخبر عن صفات خفية في النفس الإنسانية، تحتاج

إلى تأمل لمن أراد لنفسه النجاة، نسمع هذه الآيات ونناقش ما يتيسر لنا:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

هذه الآيات المباركات تخبر عن صنفين من الناس، وكأنها تبين آيات سابقة في نفس السورة (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) يوجد مهتدٍ وضال، والله يخبرنا أن من يهتدي فلنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، وهذا معنى متكرر في السورة، حتى أنه في مطلع السورة: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) السورة تتميز بتحميل الإنسان مسؤولية أعماله، وأهم عمل يتحمل الإنسان مسؤوليته هو **طلب الهداية** (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا).

نرى كيف أتى الخبر عن هذا الذي يريد الهداية، في الآيات التي نحن بصدد دراستها. هذا الإنسان أتته صفة جديدة في هذه الآيات وهي صفة الإرادة:

الأول: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ).

والثاني: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ).

يبدأ الاختلاف بين الناس من الإرادات. فمن الناس من يريد الدنيا، كل أعماله التي عملها يريد بها الدنيا ومنافعها والرياسة فيها، ومثل هذا لا يسمع ولا يطيع إلا ما ينفعه في الدنيا، وأي شيء سيمنعه من الدنيا يتركه، يرفضه، فهذا هو الصنف الأول (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ) لا يريد إلا العاجلة والعاجلة المقصود بها الدنيا لأننا نسمع: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ) فكأن العاجلة مقابل الآخرة، وسميت بالعاجلة لأن فيها تعجيل، يريد أن يعطى نصيبه في الدنيا وغير مشغول بالآخرة، وهذه هي الصفة الرئيسية في هذه المناقشة (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ) سيعامله الله هذه المعاملة، فانظر إلى خطورة الإرادات التي في النفس، وترك الإرادات وعدم الاهتمام بتحريرها، فهذا خطر على الإنسان. فلا بد أن نكون صادقين بمراجعة إراداتنا.

نلاحظ أن هذه الإرادة متجددة، في كل شيء يريد العاجلة فقط، كيف سيعامله رب العالمين؟ (عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ). معنى ذلك أن هذا الفريق يريد الحياة الدنيا، كيف سيعامله رب العالمين، ما دام يريد الحياة الدنيا فقط؟ يعطي بعضهم بعض ما يريد على حسب مشيئته -عزَّ وجلَّ-، وإرادته،

والناس على حسب أحوالهم لا يخلو أحد من أن يعطيه الله شيئًا من الدنيا، لا يخلو أحد في الدنيا من أن يكون له قدر مما يرغبه ويعطى شيئًا من لذات الدنيا، فهو لن يصل لأكثر مما كتب له.

(عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)، انتهت الدنيا، وما أسرع انتهائها! ماذا ستكون النتيجة؟ (ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ) هذا الذي سيترتب على حاله -نعوذ بالله- أن تكون جهنم مقرًا له، وهذا سيكون معه إهانة، لأنه (يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا) ومعنى (مَذْمُومًا مَدْحُورًا) أن هذا الإنسان سيكون ذمه على الألسنة وعيبه ظاهر عند الناس، (مَدْحُورًا) مطرودًا، فتجد هؤلاء على شدة حرصهم على الدنيا، لكن ينتهي بهم المطاف إلى جهنم، والعياذ بالله! ويكون مذمومًا عند الله وعند ملائكته وعند الناس، وذمّه بسبب قلّة شكره لمولاه، وسوء صنيعه بما توفر له من فرص للوصول إلى رضا الله، مدحورًا مطرودًا من الرحمة، مُبعدًا مقصيًا في النار. هذا الكلام لـ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ).

إذا عرفنا هذا وعرفنا أنه لا يحصل لكل من أراد العاجلة أن يُعطى العاجلة؛ لذلك كثير من الكفار والفساق والفجار وتاركي الدين، يعرضون عن الدين طلبًا للدنيا ثم يبقون محرومين من الدين والدنيا! هؤلاء تفوتهم الدنيا والدين فهم

الأخسرون أعمالًا. ليس كل من أراد العاجلة تحققت له إرادته من العاجلة مع تركه للآخرة.

نلاحظ أن هناك فرقًا في الخبر، سنجد أن الله بيّن لنا ثلاثة شروط في هذا الذي أراد بعمله ثواب الآخرة:

1- (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ) لا يتمنى على الله الأمانيّ، لا يقول: "أنا أريد الآخرة فأنا من أهلها!" بل الذي يريد الآخرة له شروط أولها صدق إرادته.

2- (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) السعي، والسعي ككلمة معناها المشي بقوة دون العدو، (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)، هو يريد الآخرة ويسعى لها، وسعي الآخرة الأعمال الصالحة؛ لأنها سبب الحصول على نعيم الآخرة، العامل للصالحات مثل الذي يسير سيرًا حثيثًا إلى الآخرة، فكأن الآخرة هدفه، أمام عينيه، يمشي لها بسرعة. معنى ذلك لا يقال: "أريد الآخرة" ومن غير سعي، هذا غرور؛ لأن الله جعل في فطرتنا أن كل مريد لشيء، لا بد أن يسعى إليه؛ لذلك من كلام عبد الله ابن المبارك -رحمه الله-:

"تَرجو النَجاةَ وَلَم تَسلُك مَسالِكَها إِنَّ السَفينَةَ لا تَجري عَلى اليَبَسِ"

لا تجري في الأرض اليابسة، لابد أن تسلك مسالكها.

3- (وَهُوَ مُؤْمِنٌ)، وهذه الجملة تعرب حال من سعى، يعني سعى (وَهُوَ مُؤْمِنٌ)، وهي جملة اسمية، كأن هذا الإيمان ثابتٌ، راسخٌ في نفسه، فهو راسخ الإيمان.

إذًا الذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى وحاله صاحب إيمان راسخ. (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) تفهمنا أن هذه حالته. الذي يقول: "أنا أريد الآخرة" وأحبها وأتمنى رضا رب العالمين وهو جالس في مكانه ولم يسع سعيه، يقال له: "لم تحقق الشرط ومن ثمَّ لست من الصادقين في إرادة الآخرة."

إذًا الناس

- فيهم من يريد العاجلة فقط وليس معتنيًا بالآخرة.
- وفيهم من هو صادق يريد الآخرة ودليل صدقه أنه يسعى وإيمانه راسخ.
- ويوجد أناس يدّعون أنهم يريدون الآخرة ولا يأتون بالشرط.

سنعتني بهؤلاء الذين يريدون الآخرة وأتوا بالشرط، ما جزاؤهم؟ قال تعالى: (فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)، أولئك الذين سعوا هذا السعي سعيهم مشكور، والمشكور هو الساعي الذي رضي عنه ربنا. فإقباله على الآخرة وإرادته لها وسعيه وحاله مع الإيمان، هذا يجعل سعيه مشكورًا، والله من أسمائه الشكور، فهو الذي يشكر طاعات العباد عاجلًا

وآجلًا. لو أردنا أن نشرح كيف أن سعيهم مشكور، لا تسعنا العبارة ولا يكفينا الزمن. تحت هذه الكلمة خيرات كثيرة يطول تفصيلها ويعجز الإنسان عن بيانها.

لما عرفنا هذه الصفة يا أهل القرآن، عرفنا أن الناس يختلفون على حسب إراداتهم، ويترتب على اختلاف الإرادات اختلاف التصرفات، فإن من أراد الآخرة حقًا تجده ساعيًا بالقربات والطاعات، محررًا لهذه القربات والطاعات؛ لذا تسمع في الآية: (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) المناسب، لا أن يجري في الدنيا ويقول: "العمل عبادة" ويترك العبادات! فإذا عمل عرف أنه يقوم بأعماله ومسؤولياته في الدنيا، فيكون أمينًا على ما أُمِّن عليه، يتصرف كما أمره ربه، لكن هذا العمل الذي يقوم به في الدنيا ويتصف بصفات من سعى للآخرة، لا يغنيه عن أن يقف بين يدي ربه في صلاته، وأن يصوم صيامه، وأن يتصدق ويزكي، ويقوم بالفرائض التي فرضت إليه، ويحسن إلى هذا ويتصدق بهذا ويفعل كل ما يقربه.

فسعي الآخرة المناسب لها يشمل كل حياته؛ لأن كثيرًا من الناس يتقربون إلى الله بأعمال باطلة. وهذا بابه واسع، والدخول فيه صعب ضبطه، لكن في نهاية الأمر يجب أن ننتبه لكلمة: (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) فالآخرة لها سعي موصوف في الكتاب والسنة وعلى ألسنة الأنبياء والمرسلين؛ لذلك

عندما تقرأ سورة الإسراء، تقرأ قبلها مباشرة سورة النحل، وتختم سورة النحل بقراءتك عن إبراهيم -عليه السلام- النموذج الأكمل لمن سعى للآخرة سعيها، ونبينا على ملة إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لذلك الله -عزَّ وجلَّ- في ختام سورة النحل قال لنا: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) سعى للآخرة سعيها إلى درجة أنه وحده أصبح بمثابة أمة (قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

هذا هو حال السائرين على الصراط المستقيم. كانت هذه صفاته فجازاه الله هذا الجزاء العظيم: (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) هذا النموذج الأكمل الذي أمر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بمتابعته، هذا هو نموذج الذي أراد الآخرة (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) وهو مؤمن، فهو على الصراط المستقيم، وقد هداه الله الصراط المستقيم.

(فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) لاحظ هذه الكلمة في سورة الإسراء، ولاحظ أن وصف إبراهيم -عليه السلام- كان شاكرًا لأنعمه (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، فلما كان إبراهيم -عليه السلام- شاكرًا لأنعمه عامله الله باسمه الشكور، وكان سعيه مشكورًا، وكل من سار على سيره، واهتدى بهديه، اهتدى بنبينا وبإبراهيم -صلَّى الله عليه

وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم- كان سائرًا على الصراط المستقيم.

الآن أنا أريد الآخرة وأولئك يريدون الدنيا، كيف ستكون معاملة رب العالمين لنا في الدنيا؟ في الآخرة عرفنا أن ربنا سيشكر من أراد الآخرة، وذاك الذي يريد العاجلة (ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ)، في الدنيا قال لنا رب العالمين: (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)، المعنى أنه لا بد أن نتصور أن الله تعالى لم يترك خلقه، من أثر رحمته، خلقهم للاختبار وتكفل برزقهم جميعًا، آمنوا أو كفروا تكفل برزق الجميع، لكن الناجح هو الذي يكافأ ومن فشل في الاختبار هو الذي يجازى، لكن في الدنيا خلقهم فلا يتركهم، من آثار رحمته، حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه، أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، لكن الفرق أنه أعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة؛ لذلك نسمع (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)، إذًا سواء كانوا مؤمنين يريدون الآخرة، أو فاسقين كافرين يريدون العاجلة، كلا الطرفان سيعطيهم رب العالمين، مريدو الدنيا ومريدو الآخرة، نمدّ بالعطاء هؤلاء الذين طلبوا الدنيا وهؤلاء الذين طلبوا الآخرة نمدهم (مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ) الذي قد قضى وقدر الأرزاق في الدنيا.

وهنا نفكر في إن بعض المؤمنين في الدنيا يضيق عليهم. نقول: ربنا يربي العباد بهذا التضييق وبهذه السعة، فالمؤمن قد يضيق عليه لأجل الحماية من الدنيا الفانية التي هي لهو ولعب.

ووسع على بعض المؤمنين. نقول: اختبارهم في هذا التوسيع، ولما كانوا يريدون الآخرة وفقهم لاستعمال هذا على حسب ما يرضيه.

إذًا المضيّق عليه مختبر والموسع عليه مختبر أيضًا وما داموا يريدون الآخرة ينجح كل منهم وتنهي الدنيا أسرع ما يكون. (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) ربنا الذي ربى العالمين بنعمه ما كان عطاؤه محظورًا ممنوعًا في الدنيا عن الخلق مؤمنهم وكافرهم، بل عطاؤه قد ملأ الأرض والسماء، ملأ بعطائه كل شيء -سبحانه وتعالى-، والأرض مليئة بالكنوز، فقد ملأ الله السهل والجبل من الحديد والذهب والفضة والنحاس والبهائم وأقوات الناس وشيء كثير من نعمه، نعرف اسمه أو لا نعرف، اكتشفناه أو لم نكتشفه. فضل الله لا يستطع أن يحصيه أحد حتى لو اجتمع الخلق كلهم لكي يحصوا نعم الله ليلًا ونهارًا ولم يكن لهم شغل إلا هذا، فلن يقدروا أن يحسبوا نعم الله على الخلق وعطاءه لهم، فسبحانه ما أكرمه، جواد، واسع، كريم معطٍ، سبحانه وتعالى! لذلك

عندما تسمع كلام القوم الذين تلاعبت بهم الشياطين ويقولون: "المليار الذهبي"، يريدون به أن يقتلوا الناس ويبقون هؤلاء، إن صدقوا بهذا الكلام أو هو خرافة ويكذبون علينا، فمجرد دوران هذا الكلام يجعلنا نقول: "ما أجهلكم بالله!"، أتظنون أن الله ترك عباده لكم تطعمونهم وتسقونهم؟ لا والله، بل الله هو وكيلنا، هو حسبنا ونعم الوكيل، عليه توكلنا. نطلب الاخرة ونعرف أن في الدنيا لن يأتينا أكثر مما كتب لنا، ولا بحبة خردل.

ومن أعجب ما يسمع الإنسان -وهذا الأمر عجيب نلحظه- تحكي امرأة أن أمًّا لها كبيرة في السن امتنعت عن الطعام فترة طويلة قبل وفاتها، أيام طويلة كانت تعطيها الماء بمغرفة صغيرة، وتعطيها الطعام مدقوقًا لا يكفي الطير، ثم في نهار وفاتها قدمت لها طعامًا فأكلته أكل الصحيح! ثم ما انتهى هذا النهار إلا وقد توفت. العبرة أن هذه اللقم مكتوبة في رزقها من قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف عام! كتبتها الملائكة وهي في رحم أمها أن هذه أكلاتها، هذا رزقها، فأكلتها وخرجت من الدنيا وقد أكلتها (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا). فلا يقال: "كفار المتوقع أن الله يمنع عنهم الخير"، قال تعالى: (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)، (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا

بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)، هنا أمرنا الله بالنظر في عطائه بصورة ترغبنا في الآخرة وتزهدنا في الدنيا، (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)، في هذه الدنيا فضل الله الناس بعضهم على بعض بالعطاء، وتجد المفضّل، مَن فضله الله بالعطاء يُسخر المفضول، والمفضول يرغب في خدمة المفضل، ويتشرف بالتقرب إليه، مع أن رزق الله هو الذي أعطى هذا ورفعه وحبس عن هذا، كل منهم عنده رزق الله. فالله فضل بعضهم على بعض فظن بعضهم أن هذه الحال أفضل من هذه الحال.

الحقيقة أن عطاء الدنيا لا يدل على رضا الله أبدًا، أمرنا الله أن ننظر إلى عطائه، إلى الفريقين في الدنيا وكيف أوصل الله بعض العطاء لمؤمن وقبضه عن مؤمن آخر، وأوصله إلى كافر وقبضه عن كافر آخر، وهذا التفاوت لحكمة عظيمة في الدنيا ذكرها الله في سورة الزخرف، قال تعالى: (نحن قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) لأجل أي شيء؟ (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) ليسخّر بعضهم لبعض وبهذا تتكامل الحياة، هذا يعمل وهذا يعطيه المال، هذا ينتج وهذا يشتري منه، وهكذا. لذلك في سورة الأنعام أخبر الله (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) في النهاية هذا بلاء. بدأنا الكلام وقلنا إن

الناظر في هذا سيرغبه النظر في أمر الآخرة. كيف يرغبني في الآخرة أن أنظر في الدنيا وأرى هذا يعطي ويرتفع وهذا يرغب فيما عند هذا وهذا لم يعط، كيف يرغبني التفاوت الحاصل في الدنيا في الآخرة؟ لذلك الله -عزَّ وجلَّ- قال: (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) معناها أن الناظر للتفاوت الحاصل بين الفاضل والمفضول، بين من عنده مال ومن هو أقل، وأحوالهم من جهة ارتفاعهم، هذا يجعله يطمع في الأعظم، في الأمر العظيم.

هنا في الدنيا التفاضل إنما محض قدر قدره الله للاختبار، لكن الآخرة مختلفة. لذلك قال تعالى: (وَلَلْآخِرَةُ) شأن الآخرة التفاضل فيه بصلاح الأعمال.

انظر للتفضيل في عطاء الدنيا وانظر لاختلاف الناس في ذلك، وإذا نظرت فكر في شأن الآخرة، عطاء الدنيا ليس مرتبطًا بصلاح الأعمال، بل إن الناس يعملون في مهنة واحدة ويتفاضلون بطريقة عجيبة، والناس قد يفضُل فيهم المؤمن على الكافر، وأحيانًا يفضل الكافر على المؤمن، بل ويفضل بعض المسلمين على بعض، وأيضًا يفضُل بعض الكفرة على بعض. هذا يدلك على أن مناط عطاء الدنيا أسباب تجري بحكمة الله، لكنها ليست الأعمال الصالحة؛ لذا هي ليست الشأن الذي تبذل نفسك فيه، وإنما الذي تبذل نفسك

فيه وتعرف أنك تصل بعون الله إلى الدرجات فيه، هو شأن الآخرة. ومهما نظرت في التفاوت في شأن الدنيا بين أغنى غني وأفقر فقير، فالآخرة التفاضل فيها أعظم عظمة لا تستطيع أن تصفها، أكبر درجات من هذه الدنيا (وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)، التفاوت عظيم بين أصحابها، لا يمكن المقارنة، إذا كان التفاضل بين الخلق في درجات الدنيا أمر محسوس يمكن أن يُحسب بالأرقام فالتفاضل في درجات الآخرة أكبر وأعظم، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فنسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا. فكأنه يقال إذا اجتهدت لأجل طلب فضيلة الدنيا، فالحقيقة أن الذي يستحق هذا الجهد والبذل هو طلب فضيلة الآخرة، فالآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، بما لا مجال للمقارنة فيه، وفي الآخرة يظهر فضل المؤمنين على الكافرين.

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)[2]، فما أعجب هذا الوصف، وما أحسن التفكر في هذا المعنى، تريد الآخرة وتسعى لها سعيها، وعندما تنظر في الدنيا وترى الناس متفاضلين تقول كيف يكون التفاضل في الآخرة، كيف سيعلو الذي يسبح تسبيحة ويكبر تكبيرة، وينتفع من وقته في

---

[2] () الفرقان: 24.

الدنيا ويستثمره غاية ما يمكنه، كيف سيعلو أعلى الدرجات، كيف يعلو على من مثله يجاوره لكنه ما انتفع بزمنه. ثم أشار -سبحانه وتعالى-، لنا إلى ما تُنال به درجات الآخرة من البراءة من الشرك ومن الاعتصام بالإيمان وشُعبه، فجاءت هذه الوصايا العظيمة في الآيات التالية لهذه الآية، الآيات التي تبين كيف تنال درجات الآخرة وتعلو بها. نسمع هذه الآيات ونشير إشارة سريعة لأهم أمر فيها:

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا)

كما لاحظنا في هذه التلاوة العطرة أننا سمعنا مجموعة وصايا بها تنال درجات الآخرة، لكن الملاحظ أنها ابتدأت بالبراءة من الشرك وانتهت بذلك، (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) في أول السياق (فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) وانتهى السياق بقوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا) وما بينها هذا ما نسميه بشعب الإيمان.

إذًا تُنال درجات الآخرة بالبراءة من الشرك والاعتصام بالإيمان وشعبه، فيكون تركيزنا في الدقائق الباقية على هذه

القضية الخطيرة: التوحيد، الإيمان، (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)، النتيجة (فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) ستجد النتيجة هنا.

الناس فريقان -كما تبين لنا-:

- منهم من يريد بعمله الدنيا فقط، وهؤلاء أهل العقاب والعذاب.
- ومنهم من يريد الآخرة، وهؤلاء كانت لهم ثلاثة شروط: إرادة الآخرة، وأن يسعى سعيًا موافقًا لطلب الآخرة، وأن يكون حاله في سعيه أنه مؤمن، هذا كأنه الإجمال.

فبدأ رب العالمين بتبيين حقيقة الإيمان لنا وأصله توحيد الله، ونفي الشركاء والأضداد، ثم ذكر لنا السعي، المشتغل كيف يعمل أعمالًا يسعى بها فيطلب الآخرة. فطلب الآخرة ليس اقتراحًا من عندك، رب العالمين بيّن لنا، ذكر لنا سائر الأعمال الذي يقوم بها ويشتغل بها يكون ساعيًا سعيًا يليق بطلب الآخرة، وبهذا يكون من الناس الذين سعدوا.

هذا الرابط واضح.

نصل إلى الأمر الأول المهم الذي نهينا عنه: (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) تعرف أن ربنا هو رب كل شيء ومليكه، لكن قلبك يقع فيه تعظيم غير الله. لا مدبر ولا مقدر ولا رازق ولا معطٍ إلا الله فكيف يكون لك إله غيره؟ جميع النعم حاصلة من الله، كيف تضيف نعم الله إلى غير الله، مع أن

الحق أنها كلها من الله؛ لذلك الذي يجعل مع الله إلهًا آخر سيقعد (مَذْمُومًا مَخْذُولًا)، يستحق الذم لأن الخالق -سبحانه وتعالى- هو المستحق للشكر بإعطائه لهذه النعم، فحينما يقابل إنسان إحسان الله بالإساءة وعطاءه بالجحود، هذا يستحق أن يُذم، وأيضًا يستحق أن يكون مخذولًا، لأن أي أحد يعظم مع الله غيره كأنه يفوض أمره إلى غير الله. إذا فوضت أمرك لغير الله ستكون بلا ناصر ولا حافظ ولا معين، وهذا عين الخذلان! مَن غير الله ينصرك ويحفظك ويعينك؟! سبحان الله كيف أن كلّ من يلتفت قلبه إلى غير الله يكون له نصيب من الذم والخذلان، في مقابل أن الموحد الذي يرد قلبه عن الالتفات لغير الله أو الاعتماد على غير الله يكون ممدوحًا منصورًا، ففي أي أزمة أو أي مشكلة لا تنظر إلى ما معك من أسباب، انظر إلى ربها ومالكها، واسأله وهو الأول الذي ليس قبله شيء وهبك الأسباب، اسأله وهو الآخر الذي ليس بعده شيء أن يعطيك نتائج هذه الأسباب. معنى هذا كما ذكر ابن القيم: "فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم. والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق وضدهما في الخالق سبحانه." إذا اعتمدت على

الخلق أو السبب، هذه هي النتيجة، أنك ستقعد مذمومًا مخذولًا، وإذا اعتمدت على الله كان لك النصر والحمد.

يقول: "فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله تعالى والاستعانة به، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به."

ويقول أيضًا: "أَعْظَمُ النَّاسِ خِذْلَانًا مَنْ تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَا فَاتَهُ مِنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ أَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ، وَهُوَ مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ وَالْفَوَاتِ. وَمَثَلُ الْمُتَعَلِّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ أي أحد يتعلق بغير الله من شجر وحجر، وأسباب وأي شيء، كَمَثَلِ الْمُسْتَظِلِّ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَأَوْهَنِ الْبُيُوتِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَأَسَاسُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا التَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ، هذه هي قاعدة الشرك، أن تجد شيئًا فيلتفت قلبك إليه على أن هذا يحقق لك مقصدك، وَلِصَاحِبِهِ الذَّمُّ وَالْخِذْلَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا).

مَذْمُومًا لَا حَامِدَ لَكَ، مَخْذُولًا لَا نَاصِرَ لَكَ، تريد النصير؟ اطلب مَن بيده الملك واسعَ لرضاه، إِذْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُ النَّاسِ مَقْهُورًا مَحْمُودًا كَالَّذِي قُهِرَ بِبَاطِلٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَذْمُومًا مَنْصُورًا، كَالَّذِي قُهِرَ وَتُسُلِّطَ عَلَيْهِ بِبَاطِلٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا

مَنْصُورًا كَالَّذِي تَمَكَّنَ وَمَلَكَ بِحَقٍّ، وَالْمُشْرِكُ الْمُتَعَلِّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ لا محمود ولا منصور، قِسْمُهُ أَرْدَأُ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، لَا مَحْمُودٌ وَلَا مَنْصُورٌ." ونلحظ كلمة تقعد وهي عكس (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)، فيكون هذا مخذولًا، غير منصور والسبب أنه تعلق بغير الله، ثم في خاتمة السياق وجدناه أيضًا بصفة ذميمة أخرى خطيرة جدًا على هذا الإنسان لأنها الخاتمة، نعوذ بالله أن يُختم لنا بذلك (فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا)، يُرمى، وهذا يدل على الإهانة فيكون ملومًا، مدحورًا، مطرودًا من رحمة الله، مغضوبًا عليه، مبعدًا عن رحمة الله، وكلّ يلومه، الشيطان يلومه لماذا اتبعتني؟ والذين قادوه يلومونه لماذا اتبعت؟ ونفسه تلومه وتشهد عليه، نعوذ بالله من هذه الحال ونسأله أن نكون ممن أراد الآخرة (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) وحاله أنه مؤمن راسخ في الإيمان.

نسأل الله لنا ولأحبتنا وللمؤمنين جميعًا هذه الصفات العظيمة التي تجعلنا من أهل القرآن، اللهم آمين. والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله